سلسلة أعلام حضرموت ١١

الشَّيخة سُلطانة الزُّبيديَّة

(ت ٨٤٣هـ)

بقلم خادم السَّلف

أبي بكر العدنيّ ابن عليّ المشهور

فرعُ الدِّراساتِ وخِدمةِ التُّراثِ
أربطة التَّربيةِ الإسلاميَّة - عدن

الشيخة سلطانة الزبيدية

فرع الدراسات وخدمة التراث
الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

الشيخة سلطانة الزبيدية

(ت ٨٤٣ هـ)

الغلاف الداخلي

بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني..

إن المُسلِمين والمُسلمات والمُؤمِنين والمُؤمِنات والقانِتين والقَانِتات والصادِقين والصادِقات والصابِرين والصابِرات والخَاشِعين والخاشِعات والصادِقين والصادِقات والصائِمين والصائِمات والحافِظين فُروجهم والحافِظات والذاكِرين اللهَ كَثيراً والذاكرات أعد اللهُ لهَم مغفِرةً وأجراً عظِيماً

[الأحزاب: ٣٥]

الإهداء

إلى جيل النساءِ السابحاتِ في يم الغفلةِ العصرية..

وإلى فَتيات الثقافةِ الإعلامية من ضـحايا الإداراتِ والوزارات..

وإلى من بقِي مِن أُولاتِ العِفة والصـون.. ربـاتِ البيوتِ القانتاتِ العابداتِ..

هاكُم أحد الأمثلةِ الناصعةِ في حياةِ أسلافكم..

وشتان ما بين الحياتين..

المُؤلف

لسان الحال

سلْطانةٌ هِي كاسِمها سـلطانةْ
خصت بتوفيقٍ وجذْبٍ إعانـةْ
مِن ربها سبحانه قد خصـها
بخصائصٍ وأظَلهـا إحسـانه
وبرؤيةِ الهادي مناقبها سمـت
ولقد سمت بعفافـةٍ وصِـيانةْ
ميمونةٌ في دهرِهـا نشـوانةٌ
مِن حب مولاها ترى سكرانةْ

لصاحب الحمراء الشيخ عمر بن محمد باعلوي

((الترياق الشاف)) ص٤٩

المقدمة

الحمد للّهِ رب الكون.. ومنه نستمد المدد والعـون.. ونصـلي ونسلم على سيد هذه الأمةِ.. الذي كشف اللّه به الغمة.. رسـول اللّهِ إلى الكافة محمدِ بنِ عبد اللّه.. صلى اللّه عليه وآله وأصـحابه الأئمة الكرام.. وعلى التابعين لهم بإحسانٍ وصدقٍ واتباعٍ إلى يوم اجتماعِ الأنام.. بأمر الملك العلاّم.

وبعد فيقول العبد الفقير إلى عفو مولاه أبو بكر العدني ابن علي المشهور: إنّ من نعمة اللّه التي يجب التحدثُ ا وتعميم خبرها بين الخاص والعام.. ما حرك اللّه به العزم لخدمة أسـلافنا الصـالحين بحضرموت، وإعادة صياغة تراجم حيا م رجالاً صالحين ونسـاءً صالحاتٍ ، ليقرأها جيلُ عصرِنا بلسان الحاضر من جهـة، وسـد ثغراتٍ معينةٍ أراد المُغرِضون الدخول منـها إلى الطعـن المقصـود والمبيت في عقائد رجالٍ ونساءٍ صدقوا ما عاهـدوا اللّـه عليـه ؛ ليوهموا جيلَ الإعلام والأزلام أن السلف الصالح عبدوا اللّه على غير بصيرة.. وشغلوا الجيل ذه التهم المُرجِفة عن معرفة الحق وأهلـه ،

وعزلوا بينهم وبين التاريخ الناصع.. ووجهوا أنظارهم إلى عيـوب الماضي مع إهمال الواقع.

وفي هذه الـترجمـة أخـذنا طـرفـاً مـن حياةِ امرأةٍ تقيةٍ صالحةٍ عاشت في وادي حضرموت ، وبرزت في ميدان «التصوف» علماً من الأعلام حتى أطلـق عليهـا علمـاءُ التـاريخ «رابعـة حضرموت».

امرأةٌ من قبائل كِندة.. انطوت في مدرسة آل البيـت النبـوي وتأثرت ا.. وأثبتت للعالم والتاريخ أن هذه الطريـق ومقاماتِهـا ليست حكْراً على أسرةٍ ولا سلالةٍ ولا جماعـةٍ ولا تيـار.. وأن الاحتكار صفةُ التجار الفجار في آخر الزمان يـوم يصـير العلـم مقبوضا.. والحكم عضوضا..

فاقرؤوا معي هذه الترجمةَ لتتضِح لكم معالم الطريـق.. وباللّـه التوفيق .

المُؤلّف

من هي الشيخة سلطانة ؟

هي سلطانة بنت علي الزبيدية نسبة إلى آل الزبيدي، وهم مـن قبيلة بني حارثة الكِندِية ، وقيل: من مذْحِج[1].

ولدت الشيخة سلطانة ببادية العر ، وهي العراء الممتد شـرقي قرية «مريمة» إلى ابة الحوطة المعروفة اليوم بحوطة سلطانة ، وتبعد عن مدينة سيئون بنحو ثلاثة أميال [2] ، وهي البادية التي كانـت تسكنها قبيلة «آل الزبيدي» وهم من القبائل الكِندِية المسلحة التي أُثر عنها مثل غيرها من القبائل الشدة والبأس.

نشأت سلطانة في أسرةٍ بدويةٍ تعنى بأمور الرعي والماء والكـلأ وشرف الذات والنـزعات وما شا ها في حياة البداوات.. إلا أن نفسية هذه الفتاة كانت على غير ما يعهد في سائر الفتيات.. حيث

---

(١) «أدوار التاريخ الحضرمي» للشاطري ص٣١٠ بتصرف .

(٢) يؤيد هذا المنحى أ م من مذحج ما قاله ابن شهاب في «ديوانه» يمدح به أبابكر الزبيدي ص١٨٤ :

مِن سِر سادة مـذحِجٍ مِـن آل قَحـ ـ

ـ ـطانٍ وقَحطـانُ الكِـرام السـبق

كانت تميل إلى الهدوء والعزلة عن مثيلا ا المستغرقات في فجاجة الصبيان وا ماكهم فيما يبدو حولهم من الظواهر والمظاهر السطحيات ، وما أن كبرت قليلا حتى بدأت تشعر باستقباح سلوك البداوة من ظلمٍ وبطشٍ وأذى ، وتتطلع إلى نداء الفطرة العميق الذي كان يجذ ا إلى نور الإيمان.. ويهديها إلى أسباب الاطمئنان.. وكان أفضل ما يساعدها على هذا النداء الفطري سكون الليل وهدوء العراء الفسيح ، وسماع أخبار الصالحين وأحوالهم في أمسيات القبيلة وأحاديثهم.

وتعمق هذا الاتجاه الفطري في نفس الفتاة ونمَا مع نمُوها العمري وهي ترى في «الواقع الحضرمي» وتسمع عن عبادٍ وزهاد وعلماء أتقياء صلحاء يتناقل البدو أخبار كراما م ، ويخشى حملَةُ السلاحِ قوتهم الروحية وإيمانهم المتين ، ويها م الخاص والعام ، بل ويبلغ من قوة آثارهم النورانية قدر م الخارقة على فَض النزاعات وإيقاف الحروب الطاحنة بين القبائل دون الحاجة إلى سلاح أو عتاد ولا جيوش مقاتلة.

أخذت هذه الفتاة النيرة تتابع أخبار هؤلاء الصلحاء وتتقصى أنباء نشاطهم وحركتهم في الوادي ، وتسعى بقدميها إلى أقرب المساجد تنظر إلى طلعة النور المتجلي على رجالهم ودعاتهم كلما ترددوا على البادية وما جاورها ، ينشرون الدعوة إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان لها بهذه النظر والمتابعة إضافةٌ وإضافة تبني في داخل نفسيتها الغضة بيتاً من التصوف في أسمى صوره الفطرية وعطاءاته الأولية.

لقد انتقش في قلب الفتاة الخيرة كثير من المواعظ والمذاكرات التي سمعتها، وانتعش روحها وروحها بممارسة الكثير من أعمال الطاعات صلاةً وصوماً وأذكاراً وانشغالاً تاماً بها وبما شاكلها من أفعال الصالحين.. تلك الأفعال التي استحوذت على كل همها وهِمتِها حتى كادت أن تأخذ عليها جل وقتها وهي لم تزل بعد في سن اليفاع .

رابعة حضرموت

هكذا أطلق عليها المؤرخون الاسم ، وكـان مناسـباً لحالهـا ومقامها، فالشيخة سلطانة قد أخذت منذ نعومةِ أظفارها بطريـق التصوف سلوكاً وحالاً، وتفوقت بهذا على رابعة العدوية في التاريخ الإسلامي ، وفي هذا المضمار كتب المؤرخ السيد محمد بن أحمـد الشاطري في « الأدوار » :

« وتختلف عن رابعةَ في كونها مِن حينِ نشأتِها وهي متدرجةٌ في أحوال ومقاماتِ الصوفية »[1].

لقد تهيأ للشيخة سلطانة الأخذُ بطريق التصوف في سن مبكـرةٍ ووجدت الطريق ممهداً لها في كل موقع من مواقع الوادي ، وبرغم أنها كانت تسكن بادية العر حيث يسكُن أهلُهـا وقبيلتهـا إلا أن العديد من علماء تريم ودعاة الوادي في سيؤون والغرفـة وشـبام وغيرها كانوا يترددون على تلك الناحية خلال أيـام الأسـبوع ، ويمرون بتلك البادية ويشنفون الأسماع بالحكمة والموعظة الحسـنة ويستجذبون حملة السلاح إلى أدب الإسلام ومعرفة حقوق أهله.

---

(١) « الأدوار » ص٣٠٨ .

وكان وضع البادية وأسلوب حيا م يساعد الشيخة سلطانة على البروز باحتشام في أخريات المساجد. وفي أطراف حلقات العلـم والدعوة إلى اللّه وحضرات الذكر لتنعم بسماع المذكرات وليهـدأ بالها ويحيا وجدا ا الفطري بأناشيد الصلحاء وأنغام المواجيد المألوفة آنذاك ، وصارت الشيخة سلطانة مألوفة لدى الخاص والعام في تلك الناحية ذا التفرد الغريب والتوجه العجيب.

والغرابةُ والعجب فيه أنْ واقع قبيلتها البدوي وبيئتها القبليـة لا تألف مثل هذه الأحوال ، فالقبائل البدوية بحضـرموت تـوالي آل البيت وتحبهم وتميل إلى المشايخ ورجال العلم وتحترمهم وتكرم من جاء منهم لنشر العلم وبث الدعوة إلى اللّه ؛ لكنهم لا يجـدون في أنفسهم أي استعداد لقَبول فكرة التصوف الداعي إلى ترك السلاح الظاهر والاهتمام بالسلاح الباطن وهو العلـم والعمـل هـذا في الرجال، وكذلك نساؤهم فهم يألفون حياةً خاصةً لا علاقـة لهـا بالمواجيد والوعظ وحلقات الذكر والاستغراق في مفاهيم الأحوال ومراتب الرجال .

لكن رابعة حضرموت ((سلطانة بنت علي)) كانت ذات عـزمٍ وتصميمٍ وقوةِ إرادةٍ استطاعت ا أن تنتزع الإعجاب الطوعِي من

قبيلتها أولاً ثم تجد من شيوخ عصرها غاية العنايـة والاحتضـان والرعاية . وكانت إشارات القبول وعلامات الإقبال باديةً عليهـا وملحةً على جوارحها مرحلةً بعد مرحلةً، حتى اشـتهر صـيتها وخبرها في الوادي .

والوادي كله قائم في علاقاتِ رجاله وعلمائه وصلحائه علـى حسن الظن بالعباد الصالحين، ومقياس الجميع في هذه القاعدة هـو «الاستقامة وملازمة مواقعها والجلوس مع رجالهـا وشـيوخها»، وهكذا كانت رابعة حضرموت.

لقد أثبتت الشيخة سلطانة منذ صباها أ ا خير من يقوم بـأهم أعمال الأسرة في الحياة اليومية، فهي « تقوم بالغزل والنسيج وتربية بعض الدواجن وإعداد الطعام وطبخه للأسرة وغير ذلك »[1] كما أ ا في ذات الوقت « تقيةٌ صبورةٌ متصوفةٌ واعظةٌ مرشدةٌ لهـم » ، وهي أيضا مثال العفة والطهر والنـزاهة والشرف ، ترعرعـت في جو مفعم بالكرامة والأخلاق المتوارثة عن القبيلة، وزادها الأخـذُ بالتصوفِ سمواً وعفةً والتزاماً أرقى.. وصدقاً وإيمانا أنقى وأبقى.

---

(١) المصدر السابق .

كيف اقتنعت قبيلة سلطانة بمنهجها الصوفي ؟

شاءتِ الأقدار خلال ظهور الشيخة سلطانة في باديتها أن يظفر بعض أفراد أسرتها وهم ((حملة السلاح)) ببعيرٍ تائهٍ في بعض الطريق، فأخذوه غنيمة لهم ، وكان هذا البعير مِلكاً للشيخ الصالح ((محمد بن حكم باقشير))، فلما بلغه الخبر دعا اللّه سبحانه وتعالى أمام الملأ أن يهديهم إلى سبيل الرشد إن كان دافعهم الحاجة والفاقة.. أو أن ينتقم منهم إن كان واقعهم البطر والظلم.

ولما كان تركيب هذه البداوة هو الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها برغم ما شابها من سورة النفس والشيطان إلى الظلم والنهب، فإن أسلوب المعاملة التي بلغتهم من الشيخ باقشير وعدم غضبه عليهم أو رفعهم إلى الحكام مستعيضاً عن ذلك بالدعاء لهم حرك في نفوس هؤلاء البداوة ما قد حركته في أنفسهم أختهم الصالحةُ التقية من الفطرةِ النقيةِ والتوبة الخلصاء ، فأنبتهم أنفسهم وتابوا وأنابوا.

وكانت هذه الحادثة عاملاً مساعداً وسبباً مسانداً لأختِهم على استمرار دعوتها وعوناً على استمرارها في أسلوب حياتها الروحية. ولم يقف أثر الهداية عند هذا الحد بل تروي بعض المصادر أن

أخويها عمر ومحمد تأثّرا بدعو ا وموقفها الثابت ، ومن ثم تحَكموا معها للشيخ محمد بن عبدالله القديم باعباد ، كما امتد أخذهم مثلها بعد ذلك عن بقية شيوخ الوادي وأكابرهم [1] .

شيوخ الأخذ للشيخة سلطانة

نضجت المفاهيم الفطرية التي اكتسبتها الشيخة سلطانة من داخل هذا الواقع البسيط، وبدأ مفهوم الأخذ والارتباط بأئمة الطريق يِلح على قلبها ويزعجها في مسيرة الإيمان ، ونداء الذوق المتنامي يحدوها إلى أخذ العهد والتحكيم طريقةً وسلوكاً لتصبح في واقـع الحيـاة عنصراً مسؤولاً ومتدرجاً ضمن مدرسة ذات أبعاد .

وكان أول من وضعت عليه حملَ الأخذ وسند الاتصال ـذه الطريق هو الشيخ العلامة الناسك محمد ابن عبد الله القديم باعباد ، وكان مقيما بالغرفة قريباً من بادية الشيخة سلطانة ومسكن قبيلتها. ومن هذا الباب الصوفي انفتح لها تسلْسلُ المَنح والعطاءِ الكسـبي ثم

(١) المصدر السابق ص٣٠٩ ، و« الجوهر الشفاف » (٢: ١٤) .

الوهبي زيادةً على ما نالته بجدها وصبرها ، وقد كانت مـن أهـم مميزا ا أ ا عاشت متبتلةً عازبةً لم ترض بـالزواج ولم تستشـعره كمطلب، بل استعاضت عنه بالاتجاه الأوسع وهو استجابة مطلب الروح، المطلب الذي تغذت به جوارحها منذ صباها. هذه الجوارح التي تنامى فيها أثر الطاعات وملءُ شواغر الأوقات عبر حياة الصبا واليفاع ، ما بين رياضاتٍ نفسية وتوجهاتٍ قلبية إلى المولى سبحانه وتعالى .

حتى سمت هذه الرغبات الروحية فوق كل شـيء وأثمـرت في سلطان الجوارح « القلب » ثوابت أخلاقيةٌ وضوابطُ نفسيةٌ وهمـةٌ روحيةٌ يصغر تجُاهها كل مطلب جسدي وشهوة ولو كانت مـن حلال.

ومن هذا المنطلق السلوكي العالي صـارت روح هـذه المـرأة الصالحة فَياضةً بالشفافية الإنسانية المهذبة بالطاعات ، بل صار من ثمرات شفافية الروح نمو الذوق من جهـة ، وسـهولة الأعمـال الصالحة على جوارحها من جهة أخرى، حتى أثر عنها كثرةُ مرائيها للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم.

وهكذا اتجهت حاملةً هذا المَطْمح نحو شيوخ العصـر والمصـر تزورهم في بيوتهم وتغشى أطراف مساجدهم وتجالس في محاضر ذكرهم ومواجيدهم ، وقد بلغ إلى مسامعهم خبرها ووصل إليهم تفردها عن جملةِ ما حولها ، وما ترسخ في قبيلتها وقومها من قوة تأثيرها وأثرها . فكان لها بهذا الاتصال أعظم الشرف جملةً وتفصيلاً، وارتقى عندها مفهوم الاتصال إلى كونه سبباً للاتصال بدوحة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ممثلاً بأبنائه من أهل بيته.

ولهذا أدركت حقيقة المسؤولية الشرعية تجاه هذه الذرية ، فكانت تقول لبعض شيوخها من آل باعلوي: « وعِزةِ المعبود لو في لَحمِي لك مصلحةٌ لَبريته » ، وتقول في مذكراتها للناس: « إني أرى لآل باعلوي أشياء فوق الناس » ، تعني منازل ومواهب فوق منازل ومواهب من سواهم من المشايخ والأولياء (١).

وكان أكثر اتصالها وارتباطها بالشيخ عبد الرحمن السقاف وأولاده ، ولها فيهم العديد من المقالات والعبارات التي تدل على

(١) « الترياق الشاف » ص٤٩ .

مدى إكبارها وإجلالها لآل البيت النبوي عن حرارةِ صدقٍ وإيمان تجربةٍ وفراسةِ إيمانٍ ، لا مجاملةً أو تزلفاً أو تكلفاً .

فالشيخ عبد الرحمن السقاف كان آنذاك رجلَ العصر وإمامه ، وكان كثير السفر إلى نواحي تريم داعياً ومعلماً وهاديا . وكانت بادية العر حيث تقيم «الشيخة سلطانة» إحدى لهذه النواحي التي يتردد عليها بين الحين والحين. وزاد تردده على تلك الناحية بعد أن تزوج ا على امرأة من تلك القرية [1]، وفي كل مرة يأتي إلى هذه القرية يجلس في مسجدها لنشر العلم والدعوة إلى اللّه وعقد محاضرات الذكر [2] ، وفيها يجتمع عليه الناس زرافاتٍ ووحداناً يأخذون عنه ويستمدون منه وتبتهج الناس به أيما ابتهاج .

ولأجل هذا الحال ولحقيقة ما يشهده الصالحون كانت الشيخة سلطانة تقول: إذا أراد الشيخ عبد الرحمن رضي اللّه عنه أن يجيء

---

(١) ذكر ذلك صاحب «الجوهر الشفاف» في حكاية رواها الشيخ محمد بن علي الزبيدي أخو الشيخة سلطانة (٢: ١٤) ، وذكرها مرة أخرى في حكاية عن الشيخ عمر بن عبد الحق بن بخيت (٢: ٣٠) من «الجوهر» .

(٢) ورد ذلك في «الجوهر الشفاف» خلال حكاية ذكرها المؤلف عن عبد الرحيم الخطيب (٢: ٦٦) .

عندنا أرى قبلَ قدومه بقليلٍ مكاننا وما حوله متعشـباً كعشـب الغيث الغزير ، ثم أسمع بعد ذلك منادياً يقول : جاءكم السـلطان ابن السلطان [1] .

وهذه السلطنة التي تتحدث عنها هذه المرأة الصالحة إنمـا هـي السلطنة الروحية ، وكانت حقيقةً تمثلُ مقام سلطنةٍ ومملكة تحقيقـاً لقول الشاعر :

ملُوك علـى التحقيـقِ لـيس لِغيرِهِـم
مِـــن المُلْـــكِ إلا إِسمـــه وعِقابـــه

وفيهم يقول الشيخ أبومدين :

ما لَـذةُ العـيشِ إلا صـحبةُ الفُقَـرا
هـم السـلاطِين والسـادات والأمـرا

وقد امتلأت جوانح الشيخة سلطانة بالشيخ عبد الرحمن حـتى صارت تشهده في غالب أحايينها لِما طَرأ عليها من قـوة التعلـق وصدق الوجهة ، فها هي تميز هذه الخواطر الواردة عليها عند ذكر الأولياء والصلحاء والشيوخ الذين ارتبطت م في سلوك الطريق .

(١) « الجوهر الشفاف » (٢: ٧٥) .

((كل من جاء عندي من الأولياء عَلِمت به قبل وصوله ، فإذا وصل دخلَ علي الباب إلا الشيخ عبد الرحمن فإني لم أشعر به إلا وهو قائم عندي)) .

وتفسير هذه العبارات لا يرضخ لمفهوم الظاهر بل ربما هو لما يطرأ عليها في سرها من ورود مدد الأولياء وأثرهم على الروح . وللأولياء سِر يميزون به الأمور.. بل وقد ينكشف لهم بنور اللّه بعض ما يدور.. وجاء في الأثر ((اتقُوا فراسةَ المؤمن فإنه ينظر بنور اللّه)) ، ومن هذا المطلع النوراني تقول الشيخة سلطانة : ((كُل ولي للّه تعالى قد عرفْته جماً أو قليلاً)) . قالت : ((ومنهم من عرفت حاله إلا الشيخ عبد الرحمن)) .

أما علاقتها الروحية بالشيخ أبي بكر السكران ابن الشيخ عبدالرحمن السقاف فكانت لا تقِل عن علاقتها وارتباطها بأبيه ، وكان الشيخ أبوبكر السكران كثيراً ما يتردد على قريتها على أثر والده في نشر العلم والدعوة إلى اللّه . وإلى هذا أشار صاحب ((الجوهر الشفاف)) بقوله:

وكان الشيخ أبوبكر رضي اللّه تعالى عنه كثيراً ما يزور سلطانة المذكورة ، وبينه وبينها صحبةٌ ومحبةٌ عظيمة، وإذا أراد القدوم عليها

تقول لأهل بلدها قبل قدومه إليهم بيومين أو ثـلاث : ((رحبـوا بالسلطان ابن السلطان ، إني سمعت الشاووش [1] ينادي بقدومه ، وأرى الغاشيةَ على رأسه ، والملائكةَ تشيعه أمامه وخلفه)). وتقول: ((إني أسمع النوبة دائماً تضـرب في السـماء بالمشـيخة للشـيخ أبي بكر)) [2] .

---

(١) الشاووش كلمة أعجمية ـ وأظنها تركية ـ تعني قائد الحرس أو زعيم الفريق ، وتقصد هنا هواتف البشارات .

(٢) وكان من أسباب تردده على قرية العر تزوجه ا كوالده ، ذكر ذلك صاحب ((العقـد النبوي)) ص٨٣ وكان زواجه ا على الشيخة فاطمة بنت فاضل الزبيدي ، وأخـذها إلى تريم ومكثت معه عشر سنوات ولم تنجب له ففارقها ثم تزوجها من بعده الشـيخ عمر المحضار وحملت له ببنتٍ سماها مريم ، وقد ذُكر ذلك في سياق حكاية تشـير إلى علاقة آل الزبيدي بآل عبد الرحمن السقاف .

وقولها : ((إني أسمع النوبة)) حكايةٌ عن واقع الحال لما يجري في مكنون القضاء بتقديم الشيخ أبي بكر على الجميع، ويطلق أيضا لدى الصوفية اسم ((النوبـة)) على مجمع أرواح الصالحين في عالم البرزخ، وأما الغاشية على رأسه فالمقصـود إكليلُ مظهر الولاية وأنوار الجاه والمظهر النوراني لطلعته السنية ، وأمـا تشـييع الملائكة فهو محقوق به، وقد ورد : ((إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلـم رضى بما يصنع)) فكيف بناشر العلم وحامل رايته ؟

وقد منح اللّه الشيخة سلطانة البركة في العمر حتى أدركت عقب الشيخ أبي بكر السكران ، فكانت تعامل الحفيد معاملتـها لـلأب والجد .

فكما كانت تعظم الشيخ أبابكر السكران في حياته فقد كانت تقول فيه بعد مماته : ((لما مات الشيخ أبوبكر رضي اللّه عنه وهبه اللّه تعالى مواهب عظيمةً لا أعرف أحداً من الأولياء أُعطي مثلـها إلا أن يكون أهلُه المتقدمون))[1] .

وكذلك كانت مع بقية أبناء الشـيخ عبـدالرحمن السـقاف كالمحضار [2] والشيخ حسن وسيأتي في حديثنا عن الأدب الصـوفي للشيخة سلطانة نموذج من أشعارها الذي كان بسبب حوار جرى بينها وبين الشيخ حسن بن عبدالرحمن السقاف في مجلس والده .

---

(١) ((الجوهر الشفاف)) ص١٣٤.

(٢) ورد في ((العقد النبوي)) (٢: ١٢١) أن الشيخة سلطانة رضي اللّه عنها قالت: ((رأيت الشيخ عمر بن عبد الرحمن ـ رضي اللّه عنه ونفع به ـ في قبة من نور مرتفعة في السماء وجميع الأولياء تحتها وهي فوقهم مثل النجم)) .

أما محبتها وإجلالها للسيد عبد اللّه العيدروس ابن أبي السـكران فقد أشار ((الجوهر الشفاف)) إلى ذلك برغم أن العيدروس في ذلك العصر لازال صغيراً .

جاء في قسم الحكايات ص١٤٦ قوله : ومنها ما جاء عن الرجل الصالح معروف بن أبي عباد وسلطانة بنت علي الزبيدي كثيراً مـا يعظمون الشيخ عبد اللّه ويجلونه ويستعظمون ما وهبه اللّه تعـالى. وقال بعض الثقات: أتيت يوماً عند العارفة باللّه سلطانة بنت علي الزبيدي فجعلت تمدح الشيخ عبد اللّه بن أبي بكر وتعظمه وتذكر في صفاته ، ثم قالت لي بعد ذلك : ((عليك أمانةٌ إنك إذا وصـلت تريم تقبل على رأسه)) ، فلما دخلت تريم وجدته يلعب مع الصبيان ففعلت ما أمرتني به وفي ذلك يقول مؤلف ((الجوهر الشـفاف)) شعراً :

وبنت الزبيدي كـم أشـاروا وأفصـحوا

بتعظيمـــه شـــاباً لجَـــزل عطِيـــةِ

أي : بتعظيم الشيخ عبد اللّه العيدروس وهو في سن شبابه لمـا وهبه اللّه من جزيل العطيات والمواهب.

الشيخة سلطانة والأدب الصوفي

أثمرت شفافِيةُ الطاعة واستمراريةُ الذكر والفكر اطمئناناً في قلب الشيخة سلطانة ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ وصار كل شيء في الحياة يحرك وجدان المرأة التقية إلى معرفة الإله سبحانه.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ

تدل على أنه واحِدُ

ومن هذا المنطلق كانت حضرات الذكر إحدى وسائل شحذ الذوق وإحدى وسائل قراءة النصوص الأدبية بمفهومٍ صوفي راقٍ.. لا تمت إلى فهم الناس الآخرين أمام المحسوسات بصلة .. إلا من أهل هذا القاموس ومن أهل ذوقه.

ومن ذات المنطلق أيضا كانت الشيخة سلطانة تعبر بالشعر الصوفي غير المتكلف عن أصدق أحاسيسها وحرارة وجدانها . وكان غالب أشعارها في المحبة الإلهية والأنس بالله وطاعته ، ومنه جزء آخر في مدح شيوخها وتعظيم أحوالهم ومقاماتهم [1] ، ويتميز

---

(١) منها ما دونَ في ((ديوان الحضرة)) ص١٨-١٩ وتقولها في الشيخ عبدالرحمن

شعر الشيخة سلطانة بميله إلى الأسلوب الشعبي الدارج والشعر الإنشادي الغنائي ، وكثير منه ما ينشد إلى اليوم في « حضرة الشيخ السقاف » بتريم [1] .

وذكرت كتب التراجم أن الشيخة سلطانة كانت تأتي إلى تريم وتجلس في أخريات « مجالس الشيخ عبد الرحمن السقاف » تستمع للدروس العلمية والأناشيد الصوفية وتتبادل مع المشايخ الحديث في مسائل العلم وغوامضه وقد تلقي على الحاضرين بعض الأشعار الصوفية لها ولغيرها.

السقاف :

ألا يـا مرحبـاً بالمُقَيلينـا وبالشيخِ الذي فيهم يضِـينا
سراج عند ظُلْمـاتِ الليـالي يسلّي كل من قلبه حزينـا
لأنه خـاض في بحـر المحبـةْ وحافظ سادته عهداً مكينـا
ألا يـا رب فانفعنـا بجاهِـه نعم يا رب إنـا مـذنبينا
ونختم بالصلاةِ علـى محمـد صلاةً دائمةْ في كـل حينـا

(١) أسس هذه الحضرة المباركة الإمام الشيخ عبدالرحمن السقاف المتوفى عام ٨١٩ من الهجرة .

وفي أحد هذه ا الس دار حديث عن سبيل المباسطة بينها وبين الشيخ حسن عبد الرحمن السقاف بحضرة أبيه ، ومفاد الحديث أنه لا يليق أن تكون « أنثى الجِمال » تسابق وتضارع الذكور ، وقال في ذلك شعرا :

يا ما اسفَهش ما بدا بكْـره تِمـاري جمـالْ

فاستأذنت « سلطانة » الشيخ عبد الرحمن أن تجيب على والـده فأذن لها فقالت بدون إبطاء :

الحمـلْ بالحمـلْ والزايـد لـبن والعيـال

وتشير في هذا الشطر أ ا أنثى ولكنها حملت حملَ الرجال مـن مقاماتٍ وأحوالٍ، وزادت على ذلك بالنفع الذي يعرف في الأنثـى باللبن إشارة إلى التربية ، والعيال إشارة إلى حفظ النوع بالسلالة ، وهذا ما لا يستطيع الرجل حمله والقيام به ، فسر الشيخ عبد الرحمن بسرعة بديهتها وحسن جوا ا [1] .

---

(١) « أدوار التاريخ الحضرمي » ص٣٠٩ .

الشيخة سلطانة ودورها في نشر العلم

تميزت المدرسة الصوفية بحضرموت باهتمام شيوخها وعلمائهـا وتلامذ ا بنشر الدعوة إلى اللّه تعالى وتعليم الجهال والبداوات وبذل غاية ا هود في ذلك بأبسط المقومات والوسائل.

والعجيب في هذا التضافر أن الدعوة إلى اللّه تنشر علـى هـذا النمط إلى اليوم ، وربما كانت في بعض الأحوال على أيدي التلامذة والمريدين في أول سلوكهم وطلبهم للعلم. وذلك لما يخالط قلـو م من بشاشة الإيمان وحرارته وتشجيع الشيوخ علـى ربـط العلـم بالعمل ، وربطُهما معا بالإبلاغ.

وعلى هذا الحال نشأت الشيخة سلطانة ونمت وترعرعت ، بل وتفتحت مواهبها على سماع الدعوة إلى اللّه ومجالسة أهـل العلـم والذكر، وبدأت منذ ذلك الحين تقوم بنشر ما اعتلج في صـدرها وتدعو إليه أقار ا وقبيلتها .

وأما في مرحلة ظهور مقام السلطانة وتعرفها على أساليب نشر الدعوة إلى اللّه في سائر بلاد حضرموت ، وترددها على تريم ومـا جاورها من مواطن المشايخ الأكابر، فقد رأت أن للعلم وللتعلـيم مواقع وأبنيةٌ تهتم بالناشئة وتعتني بالفقراء وتأوي المحتاجين وأهـل

الفاقة والعوز ، فلم تألُ جهداً في بذل المزيد من الوقت للدعوة إلى بناءِ رباطٍ متكاملٍ في نواحي بادية قبيلتها ، يكون لها الإشراف عليه ونفقته ، فتم لها ذلك في أقربِ وقتٍ وزمان، حيث ذكرت كتب التراجم أ ا بنت رِباطَها في قريتها ولكنهم اختلفوا في ماهيته ووظيفِته ، فبعضهم وصفوه بأنه رباطُ علمٍ وطلبٍ وإيواءٍ للدارسين، ومنهم من وصفه بأنه « رباط الفقراء » لإنزال الضيوف والغرباء وإعانة المحتاجين .

وأياً كان المقصد فالهدف سامٍ والمقام ملائم لكِلا الحالين ، والمرحلةُ ذاتها كانت تحتاج لأربطة للفقراء كما تحتاج لأربطة العلم، والفقراء الصوفية لا يجمعهم في الأربطة غير الذكر ومجالس الحضرات والعلم ، وكان شيوخ الزمان يميلون إلى التردد على هذه الأربطة لجمع الفقراء وتعليمهم وعقد حلقات الذكر معهم ، وقد بقي هذا الرباطُ المذكور بعد وفاة الشيخة سلطانة مدةً من الزمان . وهو جزءٌ لا يتجزأ من حوطَتِها المعروفة باسمها إلى اليوم . تلك الحوطة التي ظَلت ردحاً من الزمن ولها من الاحترام ونشر الأمن وحفظ الوارد والصادر ما يجعلها في مصف العديد من الحُوطِ الآمنةِ في أشد حالات الخوف والحرب والفتنة ، وكان ذلك كله يعود إلى

الجاه الواسع والمقام الكبير والصيت الذائع الذي بلغتـه الشـيخة سلطانة في حيا ا .

وقد ظل هذا الجاه والوجاهة من بعدها في العديد مـن أقار ـا وإخو ا من المشايخ « آل الزبيدي » الذين ظلوا في كل الأحـوال مرتبطين حِساً ومعنى بمدرسة وبأشياخ آل البيت في تريم وسـيؤون وغيرها ، يأتمرون بالمعروف ويوالُونهم في البأساء والضراء ويبرهنون على تلك المحبة الخالصة بالقول والفعل.

نهاية المطاف في حياة الشيخة سلطانة

عاشت الشيخةُ سلطانة كل حياتِها مضـرب المثَـل للمـرأةِ الحضرميةِ الصالحةِ التقيةِ النقية ، جامعةً بين العلم والعمـل وبـذل ا هود في الحياة الاجتماعية المستقيمة، مؤديةً كافة الحقوق لقبيلتها ولشيوخها ، وقبلَ كل هذا قائمةً بحق ر ـا في أصـدق الصـور وأخلص النماذج والأمثلة.

ومع هذه الشهرةِ الواسعة والجاهِ العريض في الأوساط الحضرمية فإن التراثَ لم يحفظ لنا عنها ترجمةً شافيةً ووافيةً ، وإنمـا بقيـت

شذَرات قليلةٌ متفرقةٌ في كتبٍ شتى.. وحسبنا منها ما عبـر بـه الأستاذُ الشاطري في « الأدوار » : أ ا قامت بدورٍ إصلاحي رفعت به شأنَ قومِها وبلدها .

ولــو كــانَ النســاءُ كمــن ذكَرنــا
لَفُضــلَتِ النســاءُ علــى الرجــال

وزيادةً على هذا فإ ا أثبتت بالملموس أن طريق التصـوف في حضرموت لم تكن دعوةَ انعِزالٍ وخمُولٍ ورهبنةٍ قاطِعةٍ عن المشاركة في الحياة ، وإنما هي دعوةُ شرفٍ وعفةٍ ومشاركةٍ نـزيهةٍ وواعيـةٍ في كل ما يبعث على نشر محاسن الإسلام وإقامة حدوده في الذات والقبيلة والحياة ، ليس في عالم الرجال وحدهم ، وإنما للنسـاء في هذا ا ال باع واسع ومجد أَثيل ، حيث عرف الواقع الحضرمي من النساء الصالحاتِ عدداً كبيراً، نرجو اللّه تعالى أنْ يوفقنا لإبرازِ مـا تيسر لنا من تراجمهم وأخبارهم ليقرأ الجيلُ عنهم حقـائق تشـفي غليلَ الصدور،وتشهد للسلف الصالح بالعمل المبرور.

وقد كانت وفاة الشيخة سلطانة بمنـزلها الكائن في حوطتـها ، ودفنت هناك بعد أن شيعتها حضرموت في موكبٍ مهيبٍ من عام ٨٤٣ هـ رحمها الله رحمة الأبرار .

الخاتمة

كان هذا واحداً من الأمثلة النسوية ذاتِ الارتباط بثقافةٍ مرحلـةٍ ، ونموذجاً من النماذج السليمة في عالم التصوف.. تلك المدرسة الجامعـة بين العلم والعمل ، وبين الإيمان بالله والتوكل عليـه ، وبـين الأخـذ بالأسباب .

وللنساء في مدرسة السلف الصالح مكانٌ ومقام ، وقد تحدثت ـذا الحال والمقام هذه المرأة المسلمة التي ولدت في حيـاة البـدو وتـأثرت بمدرسة آل البيت ، وبرزت في الواقع الحضرمي إحدى نماذجِه الراقيةِ ، والنموذج الراقي في حياةِ المرأة الصالحة قديماً هـو التقـوى والقيـام بالواجبات دِيناً ودنيا، حيث لا مجالَ عندهم للخمول السلبي ولا عزلـةَ إلا عن الشر وأهله ، وقد صنعوا ذه القاعدة مجتمعاً صالحا.. ومجـداً باذخا.. رحِمَـهم الله رحمةَ الأبرار .

الفهرس